دور الخطاب الديني المسجدي في مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا

د/ زهيــة دبــاب
جامعة بسكرة

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى محاولة الوقوف على ظاهرة الإسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام ،هذه الأخيرة التي أرهقت المجتمعات العربية والإسلامية قاطبة.وسنحاول فيه أيضا تسليط الضوء على دور الخطاب الديني في سبيل مواجهة هذه الظاهرة، من خلال تفعيل دوره الذي يكون بعملية تجديد الخطاب الديني، لأن تجديد الفكر الديني ضرورة قصوى وخاصة في وقتنا الحالي الذي يشهد حالات من التوتر،الفوضى والتفجيرات المتكررة والتي تنسب في مجملها للجماعات الإسلامية المتطرفة والمتشددة والتي تهين بالإسلام والمسلمين وبخاصة في الدول الغربية التي أصبح فيها العنف مرادفا للإسلام.

Résumé :

Cet article vise à essayer de se tenir debout sur le phénomène de l'islamophobie , ou la peur de l'Islam , ce dernier qui a contraint les communautés arabes et musulmanes ,qui a mis en lumière le rôle du discours religieux afin de faire face à ce phénomène , à travers l'activation du rôle , qui est le processus de renouvellement du discours religieux , parce le renouvellement de la pensée religieuse absolument nécessaire , surtout à l'heure actuelle qui est témoin de cas de tension , le chaos et les explosions répétées et a attribué la totalité des radicaux groupes islamiques radicaux et qui insulte à l' islam et les musulmans , en particulier dans les pays occidentaux , où la violence est devenue synonyme de l'islam .

مقدمة:

لقد أثيرت فـي الآونــة الأخيرة ظاهـرة الاسلاموفوبيـا، واحتدم حولهـا جدل واسع النطـاق فـي مختلف الأوساط الفكريــة والدينيــة، الإسلاميــة والغربيــة منهـا على حد سواء، حيث تعددت الآراء وتباينت وجهـات النظر حول الظاهـرة وأسبابهـا وتداعياتهـا وكيفيـة علاجها وأقيم في سبيل ذلك العديد من الندوات والمؤتمرات ،ونحن سنحاول أن نسلط الضوء علــى دور الخطاب الديني كأحد القوى الثقافية والاجتماعيـة التي يتم من خلالها صقل ثقافة الأفراد الدينية،وبالتالي القيم والمبادئ والسلوكيات الإجتماعية.

أولا – في مفهوم الإسلاموفوبيا: يتكون مصطلح الاسلاموفوبيـا من شقيـن أولهمـا الإسلام وثانيهمـا " الفوبيا " أو الرهاب، وهذا الأخير مستمد فــي الأصـل من علم الأمراض النفسيــة، ليتم التعبيـر بواسطتــه عن نوع من أنواع العصاب القهري، بحيث لا يملك المريض القدرة على التحكم في ردود أفعاله عند تعرضه لموضوع خوفـه، فيضيق صدره ويجف ريقه وتتزايد ضربات قلبـه ويشحب وجهـه وترتعش أطرافه، ليدخل في حالة فعلية من الفزع غير المسيطر عليه.

ووفقا لهذا يعني مصطلح الإسلاموفوبيا: حالة من الهلع الشديد وغير المنطقي من الإسلام والمسلمين .فمن ناحية يصف بعضهم الإسلاموفوبيا بأنها عبارة عن تفاقم مشاعر العداء تجاه الإسلام والمسلمين. وما يصاحبه من مظاهر تعد واضحة على المسلمين وحرياتهم ومقدساتهم. بيد أن هذا التوصيف يقع في تماس بالغ مع مفهوم "التحامل على الإسلام"(Islam Prejudice) والذي يُقصد به وجود نية مميتة لدى الآخر الديني لوصف الإسلام بما ليس فيه، كمرادفته بالإذهاب، وعدم إعمال الموضوعية أو الحياد في مناقشة مسائله والتعرض لقضاياه.

– ولنأخذ تعريف الإسلاموفوبيا الذي قدمته المنظمة البريطانية غير الحكومية "رانيمد ترست "، حيث تعتبرها النظرة إلى الإسلام بصفته كتلة أحادية لا تقبل التغيير، مقطوعة عن الثقافات الأخرى، تقوم على أفكار همجية لا عقلانيـة، بدائية وذكورية، تفضي الى العنف والعدوان والإرهاب. فإذا كانت النزعة العدائية للسامية مرفوضة، يعاقب عليها كجريمة في الغرب، فذلك أنها لا تستهدف اليهودية كنسق عقدي وقيمي في ذاته، بل معتنقي هذه الديانة كأمة وثقافة. والأمر ذاته يصدق على الإسلاموفوبيا في تصورها الإقصائي التمييزي الذي

يتعرض للمسلمين بالذم والتشويه فقط لكونهم ينتسبون لهذا الدين.

والفكرة الأساسيـة التي يتخفى بها الإسلاموفوبيون هي رصد ما اعتبروه خصوصية الإسلام في مقابل الديانات الأخرى، مما عكسته كتابات أخيرة، من بينها كتاب المؤرخ والكاتب الإسرائيلي إيلي برناوي (الديانات القاتلة) ،كتاب الكاتب التونسي حمادي الرديسى (الاستثناء الإسلامي). فحسب هذا التصور، اذا كانت اليهودية ديانة لا تطمح للانتشار والتوسع وتقوم على عقد أخلاقي بين الله والشعب الإسرائيلي وكانت المسيحية ديانة الحب والتجسد الإنساني، فإن الإسلام هو صديق العنف والتعصب، يقوم لاهوتيا وتشريعيا على الإقصاء والعدوانية.

لا يحتاج هذا الرأي إلى دحض، فمن السهل الرجوع الى النصوص التي تمجد العنف والتقتيل الجماعي في العهدين القديم والحديث، كما أن إثبات القيم الإنسانية المتسامحة والمنفتحة في النصوص الإسلامية المقدسة وتجربة المسلمين التاريخية أمر سهل، لا يحتاج لجهد فكري كبير. وليس الدفاع النظري عن الإسلام هو موضوعنا اليوم، بل نكتفي بالإشارة إلى أن الخلل الفكـري فـي الإسلاموفوبيا الجديدة هو رفض النظر إلى الأسلاف بالمنهج الذي ينظر به إلى الديانات الأخرى في العلوم الإنسانية وفي الفكر الغربي المعاصر. فبغض النظر عن كون الإسلام ينتمي لنفز التقليد الكتابـي، فانه كغيره من الديانات يرمه التنوع والتعددية لاختلاف مشارب وخلفيات وبتجارب المنتسبين إليه ومن الخطـأ اختزالـه فـي آراء ومواقف ومسلكيـات جزئيـة لا تلزم هذه الأمة الواسعة التي تنتشر في أركان العالم بأسره.

وكان المستشرق الفرنسي جاك بيرك الذي تضلع أكثر من غيره في الثقافة الإسلامية وترجم معاني القرآن الكريم يقول:" لقد آن للفكر الغربي ان يدمج الإسلام في نسقه المرجعي، حتى لا يظل دوما (الأخ المنبوذ) و(المجهول الأكبر)"، مؤكدا أن هذا الفكر سيغنم الكثير بانفتاحه الايجابي على هذا الدين العظيم والحضارة الرائعة بدل الأحكام المسبقة الموروثة حولهما.

و يعود تاريخ بروز هذه الظاهرة إلى سنة 1910 ، كفكرة مسبقة عن الإسلام وكمفهوم غير معزول عن سياق الإستشراق من منظور خلفيته الاستعمارية، أصبحت حقيقة اجتماعية أكدتها كل دراسات اللجنة الوطنية الإستشارية لحقوق الإنسان.

و لقد عرفت تطورا غير مسبوق ما بين سنتي 1999 و2001 وبلغ مؤشر عدم التسامح نتيجة 69.5% عام 2009 وفسر ذلك بتراكم مجموعة من العوامل من بينها هجمات

الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001، وتفاقم الأزمة الاقتصادية والخطاب الإعلامي حول تأدية الصلاة في الطريق العام، وتناول اللحم الحلال والانتفاضة التي عرفتها الضواحي عام 2005.

والإسلاموفوبيا التي أصبحت سلوكا عاما لم تتوقف عند مستوى الحجاب، وأضحت تعبيرا عن رفض مجمل الممارسات الإسلامية مثل عدم تناول الخمر واللحم غير الحلال من 13% إلى الثلث وصوم رمضان من 21% إلى 26%، وعيد الأضحى من25% إلى 37%.

إن تنامـي الإسلاموفوبيـا يعد ضرورة ملحـة لأكثر من تيار أيديولوجـي، وسلاحا ناجعا للعديد من التيارات السياسية العالمية، ويكفي للتدليل على ذلك الرجوع إلى الإحصائيات المتعلقة بأعداد المهاجرين لأوروبا من بلاد إسلامية، حيث بلغ عدد المهاجرين من شمـال إفريقيـا إلى فرنسا 2.4 مليون في العـام 1975، مقارنة بأقـل من 100 ألف شخص في العام 1946، كما قفز عدد المهاجرين الأتراك لأوروبا من 715 ألفا سنة 1974 إلى 3.5 ملايين سنة 2005. ولقـد رافق ذلك تضاعف عدد العاطليـن عن العمل بأوروبـا ولم تلبث أحداث الحادي عشر من سبتمبر أن منحت هاجس الخوف على الهوية الأوروبية من موجات الأسلمة المتصاعدة بُعدا آخر فأصبح المسلم "عدوا إرهابيا"!! بعدما كان مجرد متلصص يدخل الحُرمة الأوروبية دون طريقة شرعية ويُخشى من تأثير نمط حياته على موروثات الحداثة وتركة العلمانية.

وفي تطور لاحق، نشأ ما يمكن تسميته "الابتزاز بالإسلاموفوبيا"، والذي يصور الإسلام باعتباره قالبا جامدا غير قابل للدراسة أو النقاش، ودينا مغايرا له وضع خاص فوق حرية الرأي والتعبير. ومع أخذ هذه الظاهرة فـي التنامـي انتشرت الكتابات بشأنهـا، وبخاصـة بعدمـا وضع الفيلسوف الفرنسـي دوفيليه كتابه (مساجد رواس).

ولقد لعب عامل جهـل الفرنسيين والأوروبييـن للإسلام فـي نشر الإسلاموفوبيا بالترويج فقط للكتب التـي تحمل عناويـن مثيرة تنبـه إلى خطر الإسلام. فنجد مثلا الإيطاليـة أوريانـا فلاتشـي التـي وصفت المسلمين بالفئران في كتابها "الغيظ والكبرياء" الذي لاقى رواجا كبيرا في فرنسا، وميشال أوليبيك الذي قال إن "الإسلام أكثر الأديـان بلاهـة" وقـال إننـا "تنهار حينـما نقرأ القـرآن"، وأسمي المسلمين بـ"سكان الصحراء التافهيـن".

هذا فضلا عن كريستين تاسان التـي دعت إلـى منع القرآن الكريم فـي مقال تحت عنوان "ماذا نفعل بالمسلمين بعد منع القران الكريم" وإريك زمور الذي أيد حرية إهانة الرسول

صلى الله عليه وسلم في رسوم كاريكاتيرية اعتبرته إرهابيا باسم حرية التعبير. وقد طالت ظاهرة الإسلاموفوبيا كل الفضاءات الاجتماعية وعلى رأسها المدارس العمومية التي يمنع فيها على الفتيات ارتداء الحجاب وحتى عصاب الرأس والفستان الطويل .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو لماذا كل هذا التخوف للغرب من الإسلام؟

إن صيحات التخوف من الإسلام قديمة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ومروراً بالتاريخ كله نجد أنها ظاهرة ملازمة في كل موضع يتقارب أو يتعاظم فيه دور الإسلام، وقيام مؤسسات أو حكومات بتطبيقات متكاملة له. ومن أمثلة ذلك التصريح الذي أدلى به السفير اليهودي في الأمم المتحدة حيث قال: إننا نشهد اليوم ظاهرةً غريبة ومثيرة للاهتمام، وتحمل في ثناياها الشر للمجتمع الغربي بأسره، وهذه الظاهرة هي عودة الحركات الإسلامية التي تعتبر نفسها عدوةً طبيعية لكل ما هو غربي، وتعتبر التعصب ضد اليهود بشكل خاص وضد الأفكار الأخرى بشكل عام فريضة مقدسة. وجاء في مجلة (نيوز ويك) نقلاً عن راديو إسرائيل: إن منطقة آسيا الوسطى أصبحت منطقة قد يحولها الملتزمون المسلمون إلى برميل بارود قابل للانفجار، وإن نزاعات القوة التي تجري في أفغانستان في الوقت الراهن تساعد في صب الزيت على الانبعاث الإسلامي في صفوف مسلمي الجمهوريات الإسلامية السوفيتية البالغ عددهم خمسين مليون نسمة. وقد أشارت المجلة إلى الزيادة التي طرأت مؤخراً إلى عدد المنتمين إلى حزب النهضة الإسلامية في هذه الجمهوريات، وقالت: يبدو أن المجاهدين الأفغان قد اقتربوا من أي وقت مضى إلى النجاح في إنشاء دولة إسلامية متطرفة في أفغانستان، ويمثل ما تصبو إليه الزعامة الإسلامية المتطرفة التي يقودها المجاهدون لسيطرة الحركات الإسلامية على الوضع بصورة ظاهرة.

وطبعاً هذه الصورة تظهر مؤخراً بعد الأحداث الأخيرة في الجمهوريات الإسلامية، فإنها –بحسب الدراسات التي ظهرت والإحصائيات– تمثل جانباً كبيراً من قوة الاتحاد السوفيتي من حيث القوة العسكرية والنووية كذلك، وكذلك من حيث الطاقات الخام الموجودة في أراضيها.وتؤكد إحدى الصحف السويدية أن الإسلام بدأ ينتشر في الولايات المتحدة الأمريكية بسرعة مذهلة. وأن الأمريكيين وبالأخص السود منهم يدخلون في الإسلام أفواجاً، كما يلتحق بهم المهاجرون من بلدان آسيا والشرق الأقصى.

وأن معدل بناء المساجد في أمريكا هو مسجد واحد في كل أسبوع، وهذه دراسة مبنية على مركز إعلامي للاتحاد المسيحي في بريطانيا، والمساجد في أمريكا ربما أحياناً تكون

عبارة عن غرف، أو عبارة عن صالات، لكن هذا المعدل الإحصائي لا شك أنه يعطي خطراً غير محدود المدى بالنسبة لأعداء الإسلام، ففي الأسبوع يُبنى مسجد واحد، وفي السنة خمسون، وبالتالي يمكن أن يجد الأوروبيون والأمريكيون أنفسهم محاطين بالظاهرة الإسلامية التي يخططون لحربها في ديارها، وإذا بها قد التفت حولهم بصورة أو بأخرى.

ومن هنا تكمن أهمية التتبع أو الرصد لظاهرة التخوف من الإسلام؛ لأن هذا الرصد سيوقفنا على طبيعة النقاط والموضوعات المحددة والمعينة لهذا التخوف؛ لأننا في آخر الأمر سنرى أن هناك تخوفاً، لكنه إذا لم يُدرك فلن تُعرف القنوات والخطوط الأساسية الباعثة له، وإذا عرفنا هذا سنعلم أن هذه القنوات التي شكلت هذا التخوف هي المزايا التي ينبغي أن نحرص على مواجهتها.

ثانيا : في مفهوم الخطاب الديني: الخطاب لغة من فعال مصدر من خاطبه خطابا ومخاطبة، وهو يعني كلاما موجها إلى طرف واحد، أو الكلام المقصود به إفهام من هو متهيء للفهم .

وعليه فلفظة خطاب تحمل معاني ثلاثة،أولها يشير إلى الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاما متتابعا يسهم به في نسق كلي متغاير متحد الخواص،لتشكل نصا منفردا ، أو هي الطريقة التي بها يتألف ليشكل خطابا يحتوي على أكثر من نص مفرد، وبهذا يكون نوع الخطاب نص مكتوب،وعندما يكون مساق من العلاقات المتبعة التي تستخدم لتحقيق أغراض معينة، فهو يشير إلى رؤية أيديولوجية ما

فهو إذن عملية تفاعلية بين طرفين إحداهما منتج والأخر الخطاب وآخر العقل الذي تفاعل مع هذا الخطاب، وترتب على تفاعله رد الفعل سواء أكان سلبا أم إيجابا، ورد الفعل هذا يمثل تغذية إسترجاعية لمفهوم ذلك الخطاب. فالخطاب هو نوع من الاتصال ما بين طرفين يسير في اتجاهين وبصورة دائمة مستمرة لا تنقطع، وإلا بانتهاء سريانه ينتهي مفهوم الخطاب.

وهو بهذا فعل اتصالي يسعى ضمن أبعاده ودلالاته الأيديولوجية ليبلغ رسالة ما ، وموضوع معين إلى الجمهور بطريقة شفوية،كما هو الحال في الاتصال الحادث بين شخصين اثنين أو أكثر ، أو بين شخص واحد ومجموعة ، أو بين الإذاعة والمستمعين، أو بين المرسل التلفزيون والمستقبل المشاهد، أو يتخذ الصيغة التحريرية، كما هو الأمر في الكتاب والصحيفة.

كما قد يعتمد بالدرجة الأساسية على الصورة أو الإيماءة أو الإشارات أو الحركة.

وبهذا فإن الخطاب يشير إلى لغة تصدر من المرسل إلى المستقبل ، أو إيماءة أو حركة أو صوت يهدف من ورائها المرسل إخبار أو تبليغ المستقبل شيء ما أو بحدث أو خبر ما ،وبذلك إقناعه بوجهة نظر معينة.

ولقد عمل (فوكو) على تقسيم الخطاب إلى خطاب ثابت وهو خطاب يتردد في حياة الناس ولا ينقضي كالخطاب الوارد من الكتب المقدسة ، وخطاب متغير هو خطاب الناس اليومي المعتاد الذي يفنى وينقضي بانقضاء زمنه ،إذ لا تخرج هذه الأنواع عن سياق الوجود التاريخي كما يرى (فوكو) على تقسيم الخطاب إلى خطاب ثابت وهو خطاب يتردد في حياة الناس ولا ينقضي كالخطاب الوارد من الكتب المقدسة ،وخطاب متغير هو خطاب الناس اليومي المعتاد الذي يفنى وينقضي بانقضاء زمنه،إذ لا تخرج هذه الأنواع عن سياق الوجود التاريخي كما يرى (فوكو) ،لأن جميع المنطوقات التي تشكل وحدات الخطاب تتكون من علامات أو إشارات لها دلالات مختلفة،وهي تسرد وفق قواعد معينة، كما أن صياغتها على نحو يحمل في طياته فعلا معينا.

وبهذا يعبر الكثير عن مستويات الخطاب ،بأنها ترجع إلى موضوعاته ومصادره وفحواه ومحتواه،منه الخطاب التربوي والخطاب الفلسفي والسياسي والخطاب الديني إلى غير ذلك من أنواع الخطاب.

والخطاب الديني بالنظر لشموله، يحتوي كل هذه المناحي باعتبار عموم مفهوم الدين وكونيته الواسعة الفسيحة التي تجعل كل نشاط إنساني وجداني أو عقلي أو سلوكي بمختلف تغيراته الناقصة موزونا بميزان القيم ومصالح العباد من الدين.

ومصطلح الخطاب الديني يشير في كل الأحوال إلى الآراء والأفكار والاجتهادات والتفسيرات أو التأويلات التي يصوغها البشر حول دينهم،ونتيجة اتفاقهم أو اختلافهم في كيفية فهمهم نصوصه المقدسة ،ومن ثم استنباطهم من الآراء أو الأحكام مايستتب إلى عقولهم القابلة للإصابة أو الخطأ، كمل الشيء أو النقصان الذي يدفع إلى معاودة الاجتهاد والاستنباط.

و يعرف أيضا بالخطاب الذي يستند إلى مرجعية إسلامية من أصول دين الإسلام:القران والسنة،وأي من سائر الفروع الإسلامية الأخرى، سواء كان منتج الخطاب منظمة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أو غير رسمية أم أفراد متفرقين جمعهم الاستناد إلى الدين وأصوله

كمرجعية لرؤاهم وأطروحاتهم لإدارة الحياة السياسية،الاجتماعية،الاقتصادية،والثقافية .

ويعرف أيضا بالجهد الفكري الإنساني للبشر الذين لا يفارق دائما أوضاعهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وذلك من حيث الكيفية التي يتأثر بها فهم النصوص الدينية بسبب العوامل والشروط التي تدفع بالفرد أو الجماعة الفكرية،أو التيار المذهبي إلى هذا التفسير دون غيره ،أو ذلك الأول دون سواه.

ويظهر هذا الخطاب الديني على شكل مقروء كالكتاب والمجلة أو مسموع كالخطبة أو الدرس.....

ونحن في مقالنا هذا نركز على الخطاب الديني المسجدي والذي يقصد به كل ما يلقى بغرض الوعظ ، التوجه والإرشاد داخل المساجد من طرف الأئمة،سواء كان درسا أو وعظا أو خطبة، دون غيرها من الحلقات الهامشية،التي بقوم بها أفراد آخرون،وأن يكون الملقي في هذه الأصناف نفس الخطيب.

وعليه يمكن القول أنه نفس المنهج الدعوة الإسلامية في مكوناته وأبعاده ،وخصائصه مع مراعاة أحوال الجمهور الواقعية الخطاب وصدقتيه ومرونته وفعاليته ومشروعيته ودقته، وأن ترتبط المعلومات المقدمة باحتياجات الناس وأن تتضمن الفوائد والمكاسب التي تعود عليهم ،مع الحرص على تنويع الوسائل المستخدمة للتأثير في الجمهور،مع اقتناء الوقت المناسب والوقائع المختلفة التي يكون الجمهور متلهف لاستقبالها والاستجابة لها. وتبرز هذه الأهداف أكثر ضمن مختلف القضايا والمجالات التي يطرحها الخطاب الديني،كمناقشة واقع المسلمين بصفة موضوعية وتحليل مختلف التحديات التي تواجه هذا الواقع، وعرض أسباب فشله وصلاحه بمتوقع نظرة الدين إلى الإنسان والحياة وأنظمة الحكم وقضايا الاقتصاد والقضاء والتكامل السياسي والاجتماعي،وطريقة بناء الأسرة والآداب المتصلة بها وإبراز القيم الدينية بالحرية والمساواة والأخلاق، وتحديد أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم من الشعوب ،وكذا الحضارية ودوره في التنمية الشاملة في المجتمعات مع استقراء وتحليل وشرح الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث ،وتقديم القصص والنماذج الإسلامية في الحياة الإسلامية،بغية الفهم والمساهمة للحاق بمسيرة الحضارة الإنسانية.

فالدين الإسلامي يخاطب المسلم برؤية تتناول الجوانب الأساسية للحياة و عالم الغيب و الآداب و العبادات . وتحدث التغيرات النوعية الجديدة في المجتمع ، في مستوى الفكر

و الواقع على ضوء مفاهيم و قوانين موضوعية واعية، تعالج مشاكل الإنسان و ما يتعلق بها من نتائج وأحداث تنعكس على مجمل الحياة الاجتماعية و البناء الحضاري للإنسان .

غير أن مصطلح الخطاب الديني المستعمل الآن بكثرة على الساحة العربية و الإسلامية يختلف كثيرا عن المصطلح الأصلي ؛ فمصطلح الخطاب نفسه وبمفرده يستعمل بشكل مبهم وغير محدد وربما عن عمد ليسهل استخدامه لأداء مهام عديدة ليست كلها ذات طابع فكري كما قد يفترض بل تتسم بالطابع السياسي في تأكيد لحديث فوكو المعروف حول أثار القوة على تفاعلات ومصائر الخطاب. فليس من المعروف بدقة هل يستعمل المصطلح للدلالة على مضامين وأساليب الدعاة الإسلاميين في الوقت الراهن وفي بلدان عدة كما قد يتبادر إلى الذهن، لاسيما الذهن الذي يركز علي المعني اللغوي للمصطلح ولا ينتبه إلي خلفياته الفلسفية التي أشرنا إليها.

فلماذا إذن هذا البعد الشاسع بين سمو تعاليم الدين ، و سوء أحوال المسلمين و كثرة مشاكلهم سواء في مجتمعاتهم أو خارجها.

وللإجابة عن هذا التساؤل ينبغي مراجعة الخطاب الديني السائد وسط المجتمع عبر المنابر الدينية سواء فتوى أو تصريحا أو محاضرة أو درسا دينيا أو خطبة جمعة ، كدعوة جماعية و أداة اتصالية جماهيرية بلغة اليوم ، وفي هذا السياق يقول أحد الإعلاميين أن المسلمين يمتلكون أهم وسائل الإعلام و الاتصال المؤثرة أكثر من غيرها ، و هي خطبة الجمعة نظرا لما لها من أهمية ودور كبير في إيصال الرسالة للمستمعين (المصلين)، باعتبارها إلزامية و ركن من أركان صلاة الجمعة التي لا تصح إلا بها، و بالتالي يصل تأثيرها غالبا إلى كل بيت و لتنوع جمهورها . حيث يحضرها الكبير و الصغير ، المثقف و الجاهل ، العامل و البطال ، الرجل و المرأة ، وغير ذلك .لذا يكون تأثيرها واسع ولابد من أن تكون متوازنة و تراعي مختلف المستويات ، لأنها ليست درسا نظريا بقدر ما هي حقيقية تشرح وتعرض ، فلقد أدرك الخطاب الديني هذه الحقيقة؟ .

ولقد أصبح الخطاب الديني يعتبر المشكل الرئيس نظرا لانفكاكه عن دوره ووظيفته الحقيقية والواقعية ، و بقيت بصورة بلاغية نظرا لنسبية المعطيات المعرفية و الثقافية للخطيب أي يتكلم معطيات الماضي البعيد و اجتهادات السلف الصالح ، التي لاتخرج عن سرد الأحاديث النبوية و الآيات الكريمة للاستدلال بها و فهمها ، لكي تقوى سلطان النص على القلوب وإن تم تطبيقها على أرض الواقع ، فهي لاتخرج عن دعوة الناس للتأسي

بصاحبها عليه الصلاة والسلام ،لينفصل بهذا الخطاب الديني عن واقع الحياة و اهتمامات الناس و معاناتهم ، و التركيز على أمور الآخرة و إغفال إعمار الدنيا ، بتجاهل عناصر أثر الزمان و المكان و الأحوال في الفتوى ، ليفقد القدرة على التناسق بين البنى السوسيو ثقافية التي تعيشها المجتمعات المعاصرة .

لأنه عندما لاتعود قيم المجتمع تتناسب مع إمكانيات نشاطه كما يقول (ميرتون)، ينشأ الاختلاف و تدب الفوضى في تركيب بناء الأسرة وتتجلى بذلك مظاهر العنف و الانحراف كمبدأ أساسي للخلل الوظيفي و اللانظامية في الأسرة و المجتمع .

و هذه نتيجة طبيعية لركود الخطاب الديني و وقوفه على ظاهرة النصوص و حروفها مع الغفلة عن مقاصد الشريعة و كيفية تطبيقها في الواقع ، بإهمال العلم في بناء التصور الإسلامي والعقل، في استنباط الأحكام الفعلية ليتحول الخطاب الديني إلى أبنية معيقة و ممارسات تقليدية .

لأن معظم مواضيع الخطب تكون مسطرة كعناوين كبرى من قبل المسؤولين والجهات المختصة من وزارات أو مديريات ، ووفق المناسبات السنوية ، كالحج ، عيد المرأة ، عيد الأم الإسراء و المعراج ،الزواج ،الطلاق ،المهور،المبالغة والمباهاة في إقامة الحفلات والأعراس، الأسرة في الإسلام وتربية الأبناء ، حق الزوج و الزوجة ، بر الوالدين ، معوقات الزواج ، تربية النشء في الإسلام، كيفية تعامل النبي مع أزواجه ، شرح حديث الرسول صلى الله عليه و سلم "استوصوا بالنساء خيرا " .وهي عبارة عن مواضيع نظرية لا تلمس الواقع المعاش في أغلبها ،لأن معظم هذه المواضيع يستقيها الخطيب جاهزة من مواقع الانترنت ، و البعض الآخر يكتب رؤوس أقلام في ورقة يذكر فيها محاور الخطبة ، ويكتفي بما يجيد به ذهنه.أما البقية فتحاول الاجتهاد والاعتماد على مجموعة من الكتب و المراجع لتكون خطبهم مميزة و مفيدة نوعا ما .

أما ظاهرة الخوف من الإسلام وكذا تحسين صورة الإسلام، وتوضيح موقف الإسلام من المرآة أو الشباب أو غير المسلمين فتقريبا تعد مغيبة تماما في الخطب المسجدية .على الرغم من أهمية أن يعرف أفراد المجتمع المسلم مايحاك ضد الإسلام والمسلمين وبخاصة أفراد المهجر لا سيما في الدول الغربية كأوربا وأمريكا...

وكذا ضرورة أن يعمل الخطباء والأئمة على توعية المسلمين، بمخاطر تشويه صورة الإسلام خاصة من قبل الجماعات المتشددة والمتطرفة وكذا بعض أفراد الجاليات المسلمة

بالخارج.

ثالثا: فعالية الخطاب الديني في مواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا

لكي يساهم الخطاب الديني في مواجهة ظاهرة الخوف من الإسلام والمسلمين يجب العمل على تفعيل دوره من خلال عملية تجديد الخطاب الديني ، لأن تجديد الفكر الديني ضرورة قصوى وخاصة في وقتنا الحالي الذي يشهد حالات من التوتر ،الفوضى والتفجيرات المتكررة والتي تنسب في مجملها للجماعات الإسلامية المتطرفة والمتشددة والتي تهين بالإسلام والمسلمين وبخاصة في الدول الغربية التي أصبح فيها العنف مرادفا للإسلام .

ففي الفكر الديني نفسه ازداد صعود فكرة الدولة الإسلامية وضرورة تطبيق الشريعة . وفي المحيط اشتدت سياسات الولايات المتحدة الأمريكية وغزواتها قبل اصطدامها ب"القاعدة" وبعد اصطدامها، وازداد فشل الدولة الوطنية العربية والدول التي سادت فيها العسكريات والأمنيات، وازداد التدخل الإيراني في الدول العربية وهو تدخل طائفي باسم "ولاية الفقيه" وتصدير الثورة و"نصرة التشيّع"، فاجتمعت علينا أربعة ظروف هي: التشدد داخل الإسلام.

أما الآن، فانفجر الإسلام بسبب هذه الظروف الأربعة، بالتوازي مع المواجهة العسكرية والأمنيـ ومع التشديد على تغيير سياسات الولايات المتحدة وتغيير السياسات الإيرانية، وبهذا يكون علينا أن نجدد فكرنا الديني بأسلوبين:

أولاً: النهوض الفكري والثقافي ونقد الأطروحات الأصولية، وفي الوقت نفسه نقد الأطروحات العلمانية المتشددة .

ثانياً: إعادة بناء المؤسسات الدينية لتستلم المهام التي أخذها منها الأصوليون، نعني مسألة وحدة العبادات، والتعليم الديني والفتوى ومسألة الإرشاد العام، وهي المهام التي كانت تقوم بها المؤسسات الدينية واستلبها منها الأصوليون، كما استلبتها منها الأنظمة العسكرية والأمنية . الانفجار الذي حدث، حصل في الدول والمجتمعات والمؤسسات الدينية نفسها بسبب ضعفها، ولذلك لابد من نهوض عربي إسلامي ثقافي ديني فكري وكذا لا بد من تقوية المؤسسات الدينية وإصلاحها بحيث تتسم بالكفاءة وتركز على إعادة استلام ملفاتها التي أهملت أو ضاعت من يدها في المرحلة الماضية.

وفي هذا الصدد يمكننا أن نشير إلى أن المؤسسات الدينية ولا سيما المساجد بالرغم من أهمية دورها على الصعيد التوعوي والثقافي للفرد خول كل ما يتعلق بالدين ،الإسلام والحياة ككل .إلا أنها أصبحت تشكل تهديدا خاصة في الغرب ، حيث اعتبرت هي

مصدر العنف والتطرف والتعصب والكراهيـة وهذا ما جـاء على لسـان وزير الداخلية الفرنسي برنارد كازانوف حيث أمـر بإغـلاق بعض المساجد التي اتهمها بـبث الكراهية في فرنسا، مما أثار جدلا واسعا فـي أوساط مسلمـي أوروبا، بينما طرحت أسئلة حول ماهية المعايير التي ستغلق بموجبها هذه المساجد.كما تعهد بتطبيق سياسات جديدة تجـاه المساجد والأئمة فـي البلاد. حيث قامت السلطات بتشديد المراقبـة على المركز الدينيـة والثقافيـة الإسلاميـة فـي البلاد عقب هجمات "شارلـي إبـدو" ، بعد أن اتخذت قرارا بطرد40 إماما بتهمة الدعوة وبث الكراهية منذ عام 2012، بينهم 10 خلال النصف الأول من السنة الجارية فقط.

وعليه يمكن القول أن الخطاب الديني المسجدي الحالي تشوبه الكثير من المغالطات والغموض ونحن مطالبون بتصحيح المفاهيـم، ولا يمكـن أن نلصق الاسلام كدين تسامح بهذا الإرهـــاب الأعمى الذي لا علاقـة له بالخلاق والقيـم الساميـة، مشيرا إلـى أن الإسلاموفوبيا أو كما وصفها بالغلو المضاد هـي أحد أهم مسببات العنف، فمسلمـو أوروبـا لن يقبلوا أن تشير الدول الأوربيـة بأصابـع الإتهـام إلـى الإسلام، كلما حدث عمل أو اعتداء إرهابي على أراضيها.

كمـا أن أصل المشكلـة مع التطرف هو خطاب دينـي متشدد ، فكان لزاما علـى علماء المسلمين توضيح الخطاب المسجدي الصحيح الذي يبين الحق والصواب لشباب الأمة حتى لا يقعوا في المخالفات الشرعية. لذا يجب أن تتمحور موضوعـات الخطاب المسجدي حول الوعظ والتذكيـر بالله تعالى ،وبحسابه وجزائه في الاخرة وبالمعاني الربانية، التـي تحيـا بها القلوب وتعود إلى خالقها. وكذا العناية بسلامة المسلمين وتعليمهم حقائق دينهم من الكتاب والسنة،مع العقيدة والعبادة والأخلاق والآداب .والعمـل على تصحيح المفاهيـم المغلوطـة عن الإسلام ورد الشبهات والأباطيل التي يثيرها خصومه لبلبلة الأذهان بأسلوب مقنع حكيم، ومواجهـة الأفكار الهدامـة والمضللـة بتقديم الإسلام الصحيح ،وإبراز خصائص من السماحة والشمول والتوازن والعمق والإيجابية.

وكذا ربط الخطبة بأحداث المجتمع وبالواقع الذي يعيشه الناس، والتركيز على ربط علاج أمراض المجتمع وتقديم الحلول لمشكلاته. مع تثبيت معنى الأخوة الإسلامية، ومقاومة النزعات والعصبيات العنصرية والإقليمية والمذهبية المفرقة والمشتتة للأمة، والمثيرة للأحقاد والبغضاء.

وتتعلق بعض التحديات بالصورة النمطية عن الإسلام كدين وأحكامه وكنتيجة لبعض السلوكيات التي يقوم بها بعض المسلمين. وبالتالي نحتاج إلى ثورة في الفكر الإسلامي، إلى تجديد في فهم الدين وتفسير آيات القرآن الكريم والسنة النبوية لقطع دابر المفسدين والجاهلين بأصول الدين . أي نحتاج إلى مراجعة فقهية وفكرية وثقافية وتطبيق المنهج الصحيح للإسلام، وذلك يقتضي بالضرورة إعادة تأهيل المؤسسات الدينية والعلمية، وتنقيتها ممن يسيئون فهم الكتاب والسنة، وكذلك المناهج الدراسية الدينية والكتب التي تحرض على الفتنة وتشنّع بالمذاهب الإسلامية .هي معركة يجب أن تبدأ الآن تقوم بها دور الإفتاء ووزارات الأوقاف والهيئات العلمية، ورجال الفكر والثقافة والإعلام .

خاتمة: وفي الأخير لابد من تجديد الخطاب الديني ليواكب التطورات و الأحداث المتسارعة والمتغيرة التي تشهدها مجتمعاتنا، و يتماشي مع العصر و مشاكل و معاناة المسلمين المعاصرة. ويجب أن يركز الخطاب الديني المعاصر على أولوية احترام النفس البشرية وحرمة الدماء والأموال والأعراض وحرية المعتقد والتفكير . وعليه نوصي بضرورة تنظيم برامج تدريبية للأئمة على الخطابة والوعظ .وكذا العمل على نشر ثقافة اللاتعصب واللاتشدد الديني، وتعليم الجاهل من المسلمين وغير المسلمين بسماحة الإسلام وانفتاحه على الآخر.

الهوامش:

خالد سليمان ، ظاهرة الإسلاموفوبيا،www.arabrenewal.info,le16/02/2016 a20h32

[1] محمد حلمي عبد الوهاب: **الإسلاموفوبيا وسياقاتها المعرفية**: http://www.aljazeera.net

[2] محمد حلمي عبد الوهاب: نفس الموقع السابق.

[3] بوعلام رمضاني، **الإسلاموفوبيا**،نقلا عن الموقع الإلكتروني: www .aljazera.net le 19.02.2016 a 10h21

[4] بوعلام رمضاني،نفس الموقع السابق.

[5] **الخوف من الإسلام القادم**، http://audio.islamweb.net,le23/04/2016a 12h13.

[6] عبد الله بن المحفوظ: **الخطاب الإسلامي بين القواطع والإجتهاد** ،ورقة مقدمة لمؤتمر العالم الإسلامي،الخطاب الإسلامي وإشكالية العصر،مكة المكرمة،5-1428/12/7.

www.binbyyah.net/pages/research/progects/alkhetabaleslami.dec,le14/04/2016a 10h24

[7] أحمد زايد: **خطاب الحياة اليومية في المجتمع المشري**،ط1،القراءة للجمع إلنشر والتوزيع، دبي، الإمارات العربية المتحدة،1992،ص20.

[8] كمال عبد اللطيف ونصر محمد **عارف، إشكاليات الخطاب الغربي المعاصر** ،سلسلة حوارات القرن الجديد،دار إفكذ ، دمشق،سوريا،ط2001،1،ص109.

[9]أحمد حمدي :**جذور الخطاب الأزمة الجزائري**، دار القصبة للنشر، الجزائر،2001،ص.4

[10] محمود شمال حسن: **خطاب الأزمة ومحنة االأخر**، سلسلة دراسات في عف النفس الإجتفاعي،ج1،ص1،دار الأفاق العربية،القاهرة ،2006،ص7 .

[11]أحمد زايد:مرجع سابق ، ص21.

[12] عبد الله بن الشيخ المحفوظ:نفس الموقع السابق.

[13] عثمان بن محمد الصديقي ، **الخطاب الديني والأمن الفكري**،ورقة علمية مقدمة في مؤتمر دور العلماء في الوقاية من الإرهاب والتطرف،السعودية، 2015، ص7

[14] http8//vuw.alsharq.com. Le 02/04/216 a09h22.

[15]الطيب برغوث: **الخطاب الإسلامي المعاصر** ،ط1،دار الإمتياز ،الجزائر،1996،ص01.

[16]عاشور بوقلقولة:**الخطاب الديني وأبعاده** ،مجلة رسالة المسجد،تصدر عن وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائر.

[17] حسن سلمان: **دراسات قرآنية حول الإنسان والمجتمع**، ط1، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، 2002، ص11-22

http://www.bassia.org ,le 02/04/2016 a 8h34

[18] حسن سلمان،مرجع سابق،ص126.

[19] في مواجهة التكفير ،نقلا عن الموقع الإلكتروني:

http://www.bassia.org ,le 02/04/2016 a 8h34

[20]المرجع نفسه

فضيل حضري، **الخطاب الديني وتشكل الهوية الإسلامية للشباب**،جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان،2008،ص 37